جهود عبد القادر الفاسي الفهري في اللسانيات التوليدية التحويلية

د.عبد السلام شقروش
جامعة عنابة

الملخص:

خطت اللسانيات في العالم العربي خطوات كبيرة حيث تم تعريبها بالترجمة والتأليف، وقد تم لها ذلك بفضل كوكبة من رواد اللسانيات في العالم العربي، وقد كانت البدايات تهتم بالعلم كظاهرة كلية، غير أن المراحل المتأخرة أظهرت وعيا منهجيا كبيرا حيث بدأ الاشتغال على المدارس اللسانية المتعددة، ومن أبرز الرواد في هذه المرحلة الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري الذي عمل مع كوكبة من اللسانيين العرب على نقل النظرية التوليدية التحويلية بمختلف مراحلها التطورية إلى القارئ العربي؛ لكن غيره كان قد عمد إلى الترجمة، إلا أنّه هو من اهتم بالتأليف وقد تجاوز مرحلة العرض التمهيدي إلى مرحلة فحص النظرية باللغة العربية، وقد حقق بذلك أهدافا عديدة منها: الإسهام في عرض النظرية والعمل على تطويرها وتدريب القارئ العربي على الممارسة التطبيقية متجاوزة المعرفة النظرية. وسأعرض في دراستي هذه أهم إسهامات الفاسي الفهري في تقديم النظرية التوليدية التحويلية إلى القارئ العربي.

Résumé :

La linguistique a réalisé dans le monde arabe de grandes avancées, à travers la traduction et l'écriture en arabe. Alors que lors de ses débuts elle s'intéressait à la science en tant que phénomène global, elle a pu dans ses dernières étapes montrer un grand sens méthodologique, puisqu'elle commencé à travailler sur des écoles linguistiques diverses. Et parmi les précurseurs de cette étape, nous pouvons citer Abdelkader Fassi Fihri, qui a travaillé avec un groupe de linguistes pour présenter la théorie générative transformationnelle et ses différentes étapes de développement, au lecteur arabe. Et au moment ou les autres se sont consacrés à traduire cette théorie en arabe, lui s'est évertué à l'écriture, dépassant l'étape de la présentation de la théorie à l'étape de son exploration en langue arabe, ce qui lui a permis de réaliser plusieurs objectifs : la participation dans la présentation de la théorie et à la développer, entrainer le lecteur à la pratique appliquée, et dépasser la connaissance théorique. Je vais essayer de présenter, dans cet article, les plus importantes contributions de Fassi Fihri dans la présentation de la théorie générative transformationnelle au lecteur arabe.

عرفت الساحة العربية في فترة الثمانينيات من القرن العشرين نشاطا بحثيا في اللسانيات اتسم من الناحية المنهجية بنوع من النضج والوضوح حيث تجاوز مرحلة التعرف على اللسانيات الغربية، وما وسم هذه المرحلة من رؤى متوجسة، وممارسات غلب عليها الاضطراب المنهجي حيث تداخلت فيها النظريات وامتزجت وصار التعامل مع اللسانيات باعتبارها لحمة معرفية متماهية الأبعاد من غير تحديد المفاصل والنظريات المتصارعة داخلها.

خلافا لذلك وسمت مرحلة الثمانينيات بالالتزام المنهجي الصارم، ولعل مرد ذلك تعرف اللسانيين العرب على النظرية التوليدية التحويلية، حتى وإن جاء هذا التعرف متأخرا، التي مثلت معارضة واعية وصريحة للسانيات البنوية بشقيها الأوروبي والأمريكي.

وقد ظهر رواد في اللسانيات التوليدية التحويلية في المشرق والمغرب العربيين نذكر منهم؛ ميشال زكريا وعبد القادر الفاسي الفهري ومازن الوعر، وغيرهم وقد خصصت ورقتي البحثية للعلامة المغربي عبد القادر الفاسي الفهري وجهوده في البرنامج التوليدي التحويلي.

وقد تناولت فيها عناصر ثلاثة هي:

1- موقفه من التراث.

2- المصطلح اللساني.

1- موقفه من التراث:

اتخذ الفاسي من التُّراث اللُّغوي العربي موقفا واضحا لا مداراة فيه، عبّر عنه بقوله: «لا ضرورة منهجية ولا منطقيَّة تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته لمعاجلة مادة معينة»[1].

غير أن هذا التصريح لا يعني بالضرورة القطيعة مع التُّراث اللُّغوي العربي؛ لأنه يصرح في سياقات أخرى بإمكانية الاستئناس بالتراث، أو الأخذ ببعض الجزئيات فيه، أو بعض الخطوط العامة[2].

وحتى نتخلص من هذا التناقض الظَّاهر بين الموقفين، نعود إلى دلالة التُّراث عنده حيث يقول «التراث في تصورنا إمَّا معطيات اللُّغة الموصوفة، وإمَّا مفاهيم وصفيَّة أو أصول وتأملات، وعلى هذا نضطر إلى التفريق بين النَّسق الفكري وبين المعطيات»[3].

فالتراث باعتباره نسقا فكريا أُنتج في ظروف خاصة، وزمان محدد، ومعطيات متوفرة، وإمكانيات معينة، لا يمكن الأخذ به في عصرنا هذا – بحسب الفاسي- على اعتبار أن النسق الفكري المحدد يستجيب لجملة من المعطيات، ولا يستجيب لغيرها فالنسق الفكري مبني أساسا على جملة من الفرضيَّات والمقولات من وضع النحاة، انطلاقا من استقراءات للمادة المتوفرة، ثمَّ موضعة هذه المقولات موضعة خاصة مرتبطة بسياق النسق الفكري النظري، وهذه العملية تشبه اللغة؛ إذ المفردة اللُّغويَّة؛ أي اللفظة تحمل دلالة خاصة بها تسمى الدلالة الوضعية، أو المعجمية، كما تحمل هذه اللفظة دلالة أخرى مرتبطة بالسِّياق الذي ترد فيه.

فالذي يرفضه الفاسي في التُّراث هو الأخذ بالنَّظريَّة التُّراثيَّة بكاملها، وأمَّا ما يمكن أخذه من التُّراث فهو اللبنات المؤسسة للنظرية؛ أي المقولات التي وضعها النحاة القدامى، والتي تشبه الألفاظ المفردة في اللُّغة بعزلها عن سياقاتها، وهو بمذهبه هذا يشبه تشومسكي الذي لم يستند إلى نظريات تراثية، وإنما استفاد من لبنات هذه النظريَّات التُّراثيَّة؛ إذ العبرة في بناء نظريَّة ما هو النسق؛ أي البناء المشكل للمقولات والفرضيات لا المادة؛ أي الأجزاء المشكلة للبناء.

2- نقده لظواهر نحوية قديمة:

وردت في دراسات الفاسي الفهري عدة نقود موجهة لتحاليل القدماء غير مجتمعة في باب واحد، بل متفرقة بحسب الظَّواهر اللُّغويَّة التي درسها، ونحاول معالجة بعضها في دراستنا هذه، فمنها:

أ/ التقديم والتأخير:

يذهب الفاسي إلى أن البلاغيين القدامى عندما درسوا التقديم والتأخير، لم يفرقوا بين نوعين منه؛ على اعتبار اختلافهما بنويا، بل أدرجوا التحويلات كلها في إطار واحد، بينما يفرق التَّوليديُّون بين نوعين من التقديم هما التبئير والخفق.

فالاختلاف التركيبي «بين التبئير والخفق يلازمه اختلاف في البنية المنطقية لكل من التركيبين»[4].

فالتبئير هو تصدير مركب من مركبات الجملة، وهذا التصدير يمثل شجريا خارج إطار الجملة؛ أي في إسقاط وحدة وظيفية (مص) مثل:

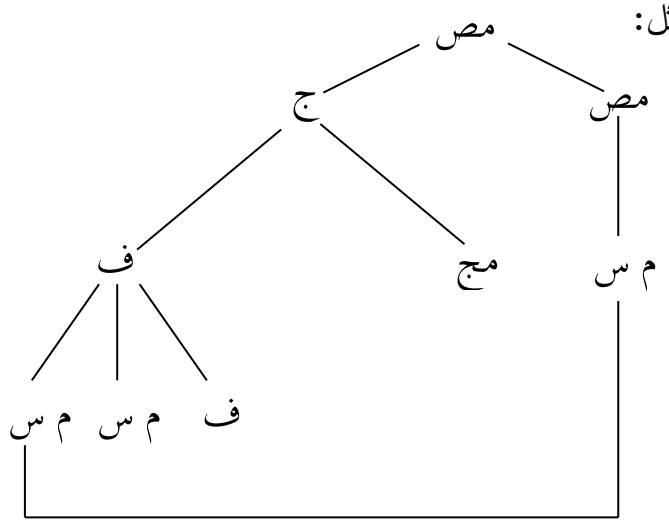

«وعليه فإن الفاسي حين يجعل الأركان المبأرة المتقدمة خارج الجمل، فإنَّه يحافظ على رتبة الجملة العربيَّة التي ينادي بها»[5]. يذهب عطاء محمَّد موسى إلى أن التبئير عند الفاسي ليس مجرد تحويل إلى الصدارة، بل إخراج العنصر المبأر عن إطار الجملة حتَّى تظلّ الجملة محافظة على ترتيبها.

بينما الخفق هو انتقال مقولة من مكانها إلى مكان آخر داخل الجملة مثل:

ضرب الولد زيدا ← ضرب زيدًا الولد

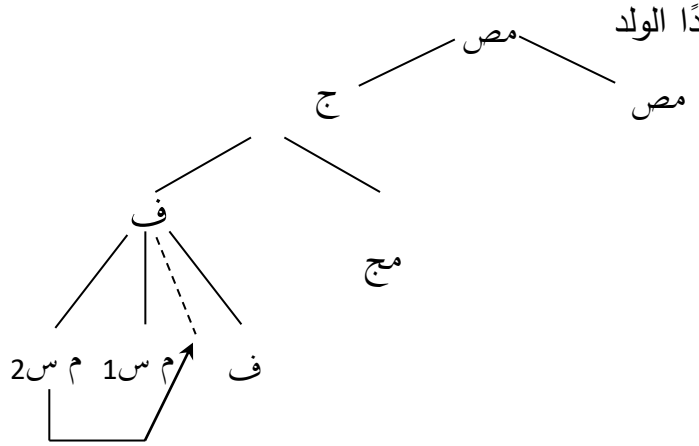

«وميدان هذا النمط من النقل إسقاط واحد لا يمكن أن يعبر حدوده إلى غيره»[6]، فقاعدة الخفق لا تؤثر تأثيرا ذا بال في البنية المنطقية للجملة، ولذلك يعدها الفاسي قاعدة أسلوبية، وليست قاعدة تحويلية[7]، ومنه يمكن تبني الصورة العامة التالية للنحو حيث قواعد الخفق (أو القواعد الأسلوبية) موجودة في المكون الصوتي لا في المكون التركيبي

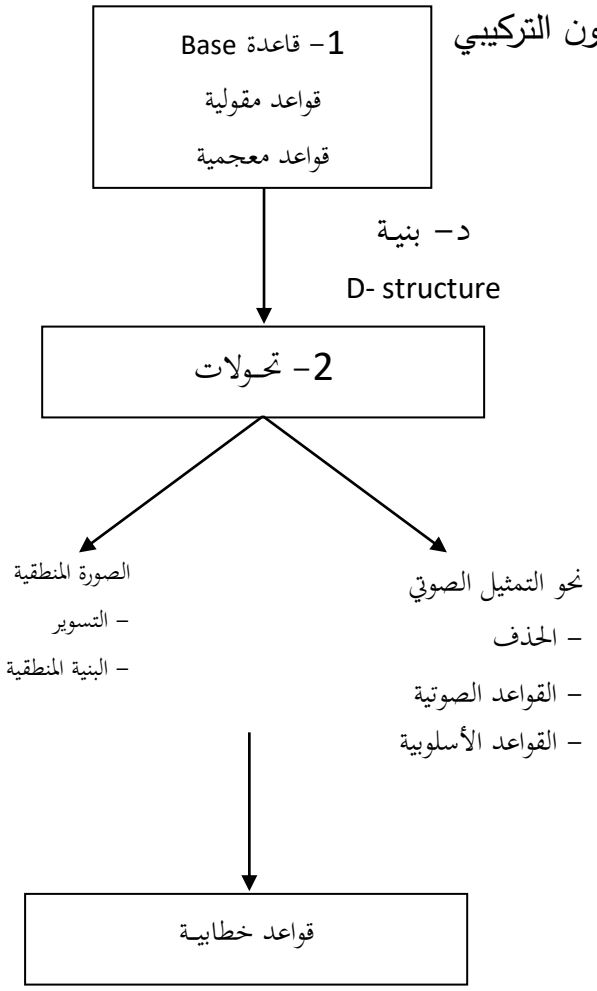

ولذلكم يذهب الفاسي إلى أن «تسوية البلاغيين العرب لبنى التقديم المختلفة غير صالحة»[8].

ب/ الاشتغال:

يذهب النحاة القدامى إلى أن الفعل قد يعرض له ما يمنعه من العمل في معموله، وذلك باشتغاله بالضمير، ففي قولنا:

زيدا ضربته

يعمل (ضرب) في الضمير المتصل (ه)، ويشتغل بذلك عن العمل في المفعول (زيد)، ويقد له النحاة عاملا افتراضيا حتَّى لا يظلّ منصوبا من غير ناصب، ولكنه في حالة التأخير يظلّ يعمل في زيد مثل:

ضربته زيدا.

ويقدر "زيد" بحسب النَّحو العربي بدلا، وذلك بعمل الفعل الظاهر لا المقدر.

ويذهب الفاسي إلى أن الذي حملهم على ذلك هو صعوبة تقدير فعل محذوف بعد الفعل الظاهر في الحالة الثانية[9].

كما يذهب النحاة القدامى إلى أن الاشتغال لا يكون في حالة النصب إلَّا في التقديم، كما سبق في المثال الفارط، أمَّا في حالة الرفع فيكون الاشتغال في التقديم والتأخير.

وقد خالف الفاسي النحاة القدامى في هذه المسألة؛ إذ اعتبر اللُّغة العربيَّة تقبل التفكيك إلى اليمين، كما تقبله إلى اليسار رفعا ونصبا، وهو بذلك لا يُخرج "زيدا" في: ضربته زيدا.

على البدلية بل «إن مثل هذه الجمل يجب أن تخرج على الاشتغال إلى اليسار (أي التبئير في منظوري)»[10].

يذهب عطاء موسى إلى أن «تبني مفهوم التفكيك إلى اليسار بدلا من المبتدأ المؤخر هو استبدال مصطلح بآخر ليس إلا، إذ لم يبد أن التفكيك قائم على أمور جوهرية، مما يجعل مقولات النحاة في تأخير المبتدأ أدق»[11].

والمسألة ليس مجرد استبدال مصطلحات، بل هي مفاهيم مختلفة؛ إذ المبتدأ عند الفاسي هو فاعل بحسب الافتراض الرابطي، وتأخيره معناه تقديم المفعول به، وبالتالي تصير العملية عملية خفق وهذا مغاير للخفق كما سبق.

كما يرى الفاسي أن النحاة القدامى قد خلطوا بين الاشتغال والبدل.

2- المصطلح اللساني[12]:

قدم عبد القادر الفاسي الفهري للمصطلح اللساني معجما ثلاثي اللغات استطاع من خلاله أن يحيط بالمصطلحات التوليدية مع أن المعجم لم يخصص للمصطلحات اللسانية التوليدية بل أراد به صاحبه أن يحيط بمصطلحات مختلف المدارس اللسانية.

أما عن منهجه في اختيار اللفظ، لإيرتكز على عناصر ثلاثة هي:

1- عدم أخذ بالمصطلحات التراثية، حرصا منه على ألا تختلط المفاهيم القديمة بالمفاهيم الجديدة حيث يقول: «حرصنا على ألا تختلط [هذه المصطلحات] بالمفردات أو المصطلحات العربية المقترنة ببناءات تصورية ومعرفية وثقافية وتقنية مغايرة ... خشية أن تختلط المفاهيم القديمة والجديدة، فنسقط في المعرفة القديمة ما لا يوجد فيها أو نحمل المعرفة الجديدة تمثلات قديمة»[13].

2- بحوثته إلى التوليدية بكثرة «لأن كثيرا من المصطلحات الغربية لم يسبق أن نقلت إلى العربية، وقد انفردنا بذلك في كثير من الأحيان»[14].

3- لم يعتمد كثيرا على المشاع من المصطلحات، رغم اعترافه بأهمية مبدأ الأخذ بالمشاع، وذلك لقناعته بعدم كفايتها المعرفية[15].

وقد استطاع من خلال معجمه أن يغطي مختلف مراحل النظرية التوليدين من المرحلة الكلاسيكية إلى البرنامج الأدنوي كما التزم بخط واحد في وضع المصطلح ولم يغير المقابل العربي بتغير تركيب المصطلح.

ومن الملاحظ على كتابات الفاسي أنَّها كانت موجهة إلى قارئ من طبقة عالية التكوين، فلم يشأ أن يقدم في كلّ كتاباته ومن غير استثناء، أية محاولة لتيسير الموضوع الذي يعالجه، لذلك جاءت لغته صعبة مما جعل بعض اللسانيين يعيب عليه ذلك. «ومن الأمور التي كان ينبغي للفاسي مراعاتها تمام المراعاة هو تسهيل اللُّغة التي يكتب بها، وتقريب المصطلحات التي يستخدمها إلى الأفهام، وملاحظة هذا الأمر لدى الفهري لا يحتاج إلى كبير عناء»[16]. غير أن الفاسي يرجع صعوبة اللِّسانيَّات إلى طبيعة الخطاب ذاته لا إلى وسائط نقله.

فالقارئ الافتراضي بالنسبة للفاسي لا بد من أن تتوفر لديه أدوات معرفية تأهله إلى دخول معترك هذا العلم؛ إذ «جوهر الانغلاق مرده في النهاية إلى ما يفترض في مستهلك اللِّسانيَّات من تخزين لأدوات معرفية واكتساب لجهاز مناظرة قد لا يتوافر بسهولة، خصوصا وأن كثيرا من عناصر هذه الأجهزة ليست صريحة في كثير مما يكتب، بل هي ضمنية لا يهتدي إليها إلَّا المختص الممعن للنظر»[17].

كما يجمل الفاسي أسباب صعوبة الخطاب اللِّساني بـ «الأبعاد المرجعية والمعرفية المنطقية، أو الأبعاد المنهجية، أو تصور المعطيات والوقائع، أو العلاقة بين هذه الأبعاد مجمعة.

وهذا [الانغلاق] يتعلق أيضا بتعدد النَّماذج الصورية والتمثيلية وتراكمها، وعدم قدرة المبتدِئ على الإحاطة بهذا العدد الهائل منها، وتمثُّلها والمفاضلة بينها، واختيار الأنموذج الأكفى، وتأويله نظريا وتجريبيا»[18].

وقد اعترف بصعوبة لغة هذا الخطاب واعتبرها من أساب الانغلاق وذلك لأسلوبها «الجاف والدقيق والمتعب الذي درج على استعماله اللِّساني والذي لا يألفه القارئ العربي عادة»[19].

وقد يكون من أسباب صعوبة خطاب الفاسي التزامه الصارم بنموذج محدد في إطار النَّظريَّة التَّوليديَّة هو الأنموذج الوظيفي المعجمي الذي طورته "برزنن"، وهذا الالتزام يفترض في المتلقي معرفة دقيقة بإجراءات هذا الأنموذج التحليلية، وبذلك يبتعد الفاسي عن الممارسات التلفيقية التي تجمع بين نماذج مختلفة بل قد تكون متناقضة في بعض الأحيان.

غير أن هذا التوجه من الفاسي قد فهم فهما سيئا عند بعض الدَّارسين، فعطاء موسى يذهب إلى أن الفاسي «لا يؤمن –لوصف العربية– بنموذج ملفق من العربية وغير العربيَّة لاعتقاده –على ما يبدو– أن النَّماذج الغربيَّة قد وصلت إلى حد الكفاية الوصفيَّة»[20].

والذي يظهر لنا من خلال هذا التعقيب أن الباحث يخلط بين المدونة والمنهج، فالفاسي يرفض التلفيق على مستوى المنهج لا على مستوى المدونة، فعلى مستوى المدونة يدعو الفاسي ومن قبله

التوليديون، إلى الاستناد إلى المقارنة بين مختلف اللغات للكَّشف عما يعرف في الأدبيات التَّوليديَّة بالكليات اللُّغويَّة[21]، وله في ذلك دراسات عديدة أهمها: كتاب المقارنة والتخطيط، كما أن له مقالات عديدة تدرس ظواهر في اللغة العربية بالمقارنة مع لغات أخرى منها:

- عن التوارث في الحدود وبعض خصائص التسوير الكلي[22].
- عن الماضي والاكتمال والتدرج أو لماذا ليست العربية لغة جهية ؟[23].
- توسيط الصفات المتوسطية[24].

أما على مستوى المنهج فَرَفْضُ الفاسي للتلفيق ليس المراد منه المزج بين النظريَّات الغربيَّة والعربية فحسب، بل المراد رفض المزج مطلقا بين مختلف النظريات حتَّى ولو كانت غربية، وسبب الرَّفض لا يعود ،كما ذهب الباحث، إلى الكفاية الوصفيَّة للنماذج الغربية، بل السبب يكمن في كون الأنموذج عبارة عن بنية افتراضية متماسكة داخليا، فلا يصح أن نفسر بعضا من الظَّاهرة بهذا الأنموذج وبعضها الآخر بنموذج آخر.

ومما عيب على الفاسي استدلاله بالدارجة المغربية، وقد رأى عطاء موسى أن ذلك «يقتضي التقعيد لكل دارجة في العالم العربي، وهو أمر متعذر يضعف من هذه المقولات»[25].

غير أن الاتِّكاء على دارجة ما، أو لغة ما، لا يعني التقعيد لها ولا لغيرها، بل المراد البحث عن تفسير لهذه الظَّاهرة أو تلك من خلال مقارنتها بهذه اللُّغة أو اللهجة أو الدارجة، ويستند الفاسي، ومعه التوليديون، في ذلك إلى قناعتين:

أما الأولى: فهي وجوب دراسة اللُّغة وفقا للمنهج المقارن الحديث سعيا للكَّشف عن الكليات اللُّغويَّة.

وأما الثانية: فهي إلَّا فرق بين لغة ولغة ولا فرق بين لغة ولهجة من ناحية البنية أو ما يعرف باللسانيات الداخلية، فالمفاضلة بين اللُّغات واللهجات تتمُّ في إطار اللِّسانيَّات الخارجية الاجتماعية منها والجغرافية؛ بل إن موضوع النَّظريَّة التَّوليديَّة هو المتكلم/ المستمع السليقي الذي يمكّننا من اختبار الفرضيَّات المؤسسة للنظرية من خلال حدسه، لذلك يكون المستوى التداولي في اللُّغة هو الأساس في اختبار الفرضيَّات على اعتبار أن المتكلم/ المستمع، في هذا المستوى من اللُّغة، يبتعد الجانب الواعي فيه، فلا ينحرف في حكمه على السلاسل اللُّغويَّة التي تعرض عليه من حيث القواعدية أو المقبولية.

وعلى ما يلاقيه قارئ الفاسي من صعوبة، إلَّا أن ذلك لا ينتقص من قيمة بحوثه في شيء، بل إن أعماله تدلُّ على عمق معرفي، وأصالة في البحث عبر عن ذلك عطاء محمَّد موسى بقوله: «إلا أن من النصفة أن أذكر عرض الفهري للموضوعات التي تناولها ينم عن أصالة في البحث تتسم بالدقة والموضوعية والعمق، وتظهر أن صاحبها ذو كفاية عالية في هذا الميدان الذي ولجه من أوسع

أبوابه، ولا شكَّ أن ما قام به هو خطوة بل خطوات جادة على طريق السير نحو نظريَّة عربيَّة حديثة»[26].

كما يذهب مصطفى غلفان إلى أن «في تحليل الفاسي الفهري أيضا شمولية وتكامل ودقة في تحديد المنطلقات النَّظريَّة، وهي سمات لا تقدمها أية مقاربة توليدية عربيَّة أخرى»[27].

ويعد خطاب الفاسي من أصعب الخطابات اللسانية العربية؛ وذلك لأن قارئه الافتراضي غير موجود في العالم العربي، فلو عدنا إلى كتابه اللسانيات واللغة العربية على سبيل المثال الصادر سنة 1985 وقارناه ببعض الرسائل الجامعية المعاصرة له مثل رسالة حسام البهنساوي والشريف ميهوبي، ومنصور خلخال، وعبد الرزاق دوراري، لوجدنا البحث الأكاديمي العربي لم يتجاوز النظرية الأنموذجية الموسعة في الوقت الذي يعالج فيه الفاسي المبادئ والوسائط والنحو المعجمي الوظيفي، ومما زاد كتاباته صعوبة أنه لا يعرض في كتاباته ما وصلت إليه النظرية، بل يدخل معترك المثاقفة والحوار مفترضا أن المتلقي ملم بالخلفيات التي يدور حولها الجدال العلمي، ولا تعني صعوبة خطاب الفاسي أن أسلوبه في الكتابة صعب، فهذا حتى وإن وجد لا يعني الكثير بالنسبة للمتمرس في الأساليب اللغوية المختلفة، بل الصعوبة تكمن في عدم التوازن المعرفي بين المرسل والمرسل إليه من حيث المحتوى ومن حيث الكم.

مثلت كتابات الفاسي كثافة بحثية جعلته يعالج مختلف القضايا التي طرحتها النظرية التوليدية كما حاول اختبار كل الفرضيات وقد مثلت أعماله مسايرة بتوافق تام للبحث اللساني العالمي، إذ نجده في كتاباته الصادرة في الثمانينيات يعالج النظريات القالبية؛ أي المبادئ والوسائط. وفي التسعينيات عالج "البرنامج الأدنوي" وقد كانت هذه النظريات في ذلك الوقت محل بحث ونقاش، مما جعل الفاسي الفهري مسايرا لحركة البحث اللساني العالمي.

الهوامش

---

1 – عبد القادر الفاسي الفهري: اللِّسانيَّات واللُّغة العربيَّة، ص 54.

2 – انظر المرجع نفسه: ص 61.

3 – المرجع نفسه: ص 60.

4 – المرجع السَّابق: ص 124.

5 – عطاء محمَّد موسى: مناهج الدَّرس النحوي في العالم العربي في القرن العشرين، دار الإسراء، عمان الأردن، ص 266.

6 – المرجع السابق: ص 267.

7 – مصطفى غلفان: اللِّسانيَّات العربيَّة الحديثة، ص 215.

8 – عبد القادر الفاسي الفهري: اللِّسانيَّات واللُّغة العربيَّة، ص 124.

9 – المرجع السَّابق: ص 146.

10 – المرجع نفسه: ص 146.

11 – عطاء محمد موسى: المرجع السَّابق، ص 271.

12 – عبد القادر الفاسي الفهري بمشاركة نادية العمري: معجم المصطلحات اللسانية (إنجليزي–فرنسي–عربي)، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2009.

13 – المرجع نفسه: ص 7.

14 – المرجع السابق: ص 7.

15 – المرجع نفسه: ص 7.

16– عطاء محمَّد موسى: ص 276.

17– عبد القادر الفاسي الفهري: اللِّسانيَّات واللُّغة العربيَّة، ص 12.

18 – المرجع السابق: ص 12.

19 – المرجع نفسه: ص 12.

20 – عطاء محمد موسى: مناهج الدَّرس النَّحوي، ص 257.

21 – نعوم تشومسكي: آفاق جديدة في دراسة اللُّغة والعقل، ص 25.

22 – عبد القادر الفاسي الفهري وآخرون: المركبات الاسمية والحدية في اللسانيات المقارنة، (أعمال ملتقى)، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب وجمعية اللسانيات بالمغرب، ط 1999.

23 –عبد القادر الفاسي الفهري وآخرون: البنية الزمنية وأشكالها (أعمال ملتقى)، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب وجمعية اللسانيات بالمغرب، ط 2000.

24 – عبد القادر الفاسي الفهري وآخرون: الظروف والنعوت، (أعمال ملتقى)، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب وجمعية اللسانيات بالمغرب، ط 2001.

25 – عطاء محمد موسى: مناهج الدَّرس النحوي، ص 271.

26 – المرجع السابق: ص 277.

27 – مصطفى غلفان: اللِّسانيَّات العربيَّة الحديثة، ص 215.